الثقافة الإسلامية

(٥٧)

دروس من الثورة الإسلامية في إيران

(القسم الأول)

في علاقة الثورة بالله

الإصدار الثاني

مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات

ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي

- ٥٧ -

*   *   *

اسم الكتاب: .... في علاقة الثورة بالله

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الخامسة: .... ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م

الكمية ....٥٠٠٠ نسخة

المطبعة:...... مطبعة مجمع أهل البيت ^ النجف الأشرف

الإهداء

إن قوام كل ثورة: قطرات من الدم، وقطرات من الدمع، وقطرات من الحبر.

وإذا كانت الأيام حبستني أن أبذل في الثورة الإسلامية المباركة في إيران قطرات من الدم، فها هي قطرات من الحبر، ممزوجة بقطرات من الدمع، أهديها إلى قائد الثورة الإسلامية الإمام الخميني & ، والى أرواح الشهداء الأبرار من الشعب الإيراني المسلم المجاهد...

محمد مهدي الآصفي

المقدمة

الثورة الإسلامية ـ التي قام بأعبائها الشعب الإيراني المسلم بقيادة الإمام الخميني الراحل & في السنوات الأخيرة، والتي تمخضت عنها الجمهورية الإسلامية في إيران، وآذنت بمرحلة جديدة في تاريخ العالم السياسي المعاصر ـ تعتبر واحدة من أكبر أحداث التاريخ الإنساني المعاصر، وأحفلها بالتجارب، وأغناها بالمفاهيم والأفكار، وأكثرها تأثيراً في مسار أحداث التاريخ السياسي في عصرنا.

وقد كان في هذه الثورة الإسلامية المعاصرة ـ كأية ثورة أخرى ـ نقاط قوة ونقاط ضعف، وتجارب ناجحة وأخرى لم يكتب لها النجاح، وأعمالاً ومشاريع وشعارات نبعت من متن الثورة، عمّقت الثورة ور كّزتها على الصعيدين الإسلامي والعالمي، كما ظهر فيها أعمال وشعارات أضرّت بالثورة وأضعف دورها فيهما.

ولمّا كانت هذه الثورة بداية لمرحلة جديدة في التاريخ

الإسلامي المعاصر وإيذاناً باتّساع رقعة الثورة الإسلامية في العالم، واحتدام المواجهة بين الإسلام والكفر، كان حريّاً برجال الفكر والحركة الإسلامية أن يعطوا هذه الثورة الكثير من اهتمامهم وعنايتهم وأفكارهم.

وانطلاقاً من هذا الإحساس قمت بإلقاء مجموعة من المحاضرات عن الثورة الإسلامية في إيران في عدد من المؤتمرات والندوات الإسلامية، وهذه حلقات ثلاثة من تلك المحاضرات وهي:

١ ـ في علاقة الثورة بالله، وهي محاضرة ألقيت في المؤتمر السنوي لرابطة الشباب المسلم في لندن عام ١٩٧٩.

٢ ـ الأعماق الحضارية للثورة الإسلامية المعاصرة، وهي مجموعة ثلاثة محاضرات ألقيت في رابطة الشباب المسلم بلندن عام ١٩٨٣.

٣ ـ خطّ الإمام، وهي محاضرة ألقيت في مؤتمر الكوادر الإسلامية العراقية بطهران في ربيع الأول سنة ١٤٠٥.

وطبعت هذه المحاضرات في ثلاث حلقات وأعيد طبع

بعضها مرّات عديدة خلال هذه الفترة.

أسأل الله تعالى أن يوفقني لإخراج سائر حلقات هذه المحاضرات والدروس تباعاً، وهو الملهم والموفق للسداد والصواب.

محمد مهدي الآصفي

٢٩ ربيع الثاني ١٤١٠هـ

في علاقة الثورة بالله

الثورة الإسلامية المباركة في إيران، كانت ثورة مباركة بالمعنى الدقيق والواسع للكلمة، فقد أكسبت هذه الثورة الدعاة إلى الله تعالى بفيض من العطاء والتجارب الخصبة والدروس والعبر والأفكار والمفاهيم.

ولقد كانت هذه الدروس والأفكار والمفاهيم قائمة في تراث الدعوة، فيما يحكي الله تعالى لنا ـ نحن الدعاة إلى الله ـ من قصص الماضين في الصراع بين الحق والباطل، وكانت قائمة في نفوس الدعاة ووعيهم وقلوبهم، لكنها كانت نظريات وأفكاراً، آمنّا بها إيماناً نظرياً، فتحولت هذه النظريات التي كنا قد آمنّا بها من قبل إلى واقع حي متحرك، نلمسه، ونراه، وتملأ نفوسنا وتعمر قلوبنا، وجسّدته الثورة الإسلامية، ومنحته الحركة والحياة والدم.

وأسأله تعالى أن يوفقني في هذا المؤتمر المبارك الذي شاء الأخوة المؤمنون أن يقيموه تحت شعار (الدعوة إلى الله)

أن أستخلص لكم أهم هذه الدروس والأفكار والمفاهيم.

*　　*　　*

وأول هذه الدروس وأهمها في نظري... أننا عرفنا الله نوعاً جديداً من المعرفة.

وأرجو ألا تستغربوا فإن لمعرفة الله تعالى حقولاً وآفاقاً واسعة... ومن هذه الآفاق والحقول من المعرفة، معرفة معية الله تعالى للمؤمنين في معركتهم الضارية ضد الكفر.

وليس من شك أن لإحساس المؤمنين بمعية الله ونصر الله تعالى لهم قيمة كبيرة في دعم القلة المؤمنة وشدّ صفوفهم ودعمهم ورفع معنوياتهم. ويولّد هذا الإحساس لدى الداعية شعوراً بالقوة والاستعلاء في ساحة المعركة، فهو لا يقاتل وحده، وإنما يقف في الساحة ويقاتل، ويهاجم، ويدافع، ومعه الله تعالى.

والله تعالى في عمق وعي المؤمن وقلبه، أكبر من أي قوة وأقوى من أي طاغوت، مهما بلغت قدرته وشوكته، والمؤمنون يرددون هذا المفهوم ضمن شعار (الله أكبر) في

كل يوم في صلواتهم عشرات المرات.

وهـو يرسّـخ فـي نفـس الإنسـان المـؤمن إيمانـاً لا حـد لـه بعظمـة الله تعـالى وجلالـه وكبريائـه وقوتـه وعزّتـه وعظمتـه اللامتناهية، وتتضاءل أمام هذا الشعار قوة الطغاة وشوكتهم.

فتنقلـب العقيـدة، وينقلـب الشـعار، وتنقلـب الصـلاة إلـى شعور بالقوة والعزّة.

وكـذلك كانـت الصـلاة، وشـعار (الله اكبـر) فـي الصـلاة، تمنح المؤمنين قوة، وعزة، وصـموداً، واسـتقامة فـي سـاحات المعركة.

فكيف اختفت حيّوية هـذا الشـعار فـي حيـاة الأمـة اليـوم، وكيف فقدت الصـلاة دورهـا فـي سـاحات القتـال... وكيـف أصبحت الصلاة والأذان لا تعنـي شـيئاً فـي حيـاة هـذه الأمـة، يهابه أعداء الله... إن لذلك قصة أريد أن أتحدث عنها:

فشل الاستعمار في فصل الدين عـن السياسـة نظريـاً، علـى الأقل، في الأوسـاط الواعيـة المؤمنـة مـن المسـلمين، وظلـت الطبقة الواعية المؤمنة من هذه الأمة تـؤمن بـأن السياسـة شـأن

من شؤون الدين، وأنه في الصميم من الدين.

ولكن مما لا شك فيه أن الاستعمار نجح في فصل العقيدة عن السياسة حتى على الصعيد النظري في هذه الأمة.

وفي رأيي أن فصل العقيدة عن السياسة أخطر من فصل الدين عن السياسة.

فأصبح المسلمون يفهمون السياسة بصورة مستقلة تماماً عن إيمانهم وعقيدتهم بالله تعالى، ويفهمون العقيدة كذلك بمعزل عن السياسة على شكل حقلين منفصلين.

وكأنّ السياسة تجري في عالم مستقل عن مشيئة الله تعالى، وفق قوانين ومعادلات بشرية، وبموجب موازين القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية، وليس لله تعالى مشيئة وإرادة في عالم السياسة.

ولكي أفتق الجرح الذي تعاني منه الأمة أقول: في عقيدة الكثيرين: إن الله تعالى خلق السماوات، والأرضين، والمجرات، والكون الكبير، وخلق البحار والجبال والأنهار، وبأمره تعالى ينزل الغيث، وتخضرّ الأرض، وتثمر الأشجار،

وتتقلّب الفصول، وله في كل ذلك الأمر من قبل ومن بعد.

ولكن السياسة تجري حول محور آخر، هو محور القوتين العظميين وأحلافهما، وشبكاتهما التجسسية، وقواتهما العسكرية، وقدراتهما الاقتصادية، وسياساتهما، فإذا اتفقتا فالويل للعالم الثالث منهما، وإذا اختلفتا فالويل للبشرية... وهما إلى الوفاق والتفاهم أقرب في الغالب منهما منه إلى الاختلاف.

ثم ليس لله تعالى شأن في إدارة وتدبير عالم السياسة بعرضه العريض، والأمر كلّه موكول إلى القوتين الاستكباريتين، فهو تعالى القوي المتعال، والحاكم المطلق في هذا الكون الرحب، ولكن السياسة لها شأنها الخاص ومعادلاتها الخاصة، ولا دخل لهذه العقيدة في المعادلات السياسية.

هذه هي الحقيقة المرة بكل مرارتها وقسوتها.

وكيف أصبحنا كذلك؟

بكل بساطة تعلمنا السياسة في المدرسة الغربية المادية،

وأخـذنا نفهـم السياسـة ونناقشـها ونحلّـل ونفسّـر الأحـداث السياسـية، وأحيانـاً فيمـا بيننـا نحـن المـؤمنين، وفـي مجالسـنا الخاصة بهذه الذهنية.

وهذه المدرسة السياسية التي أثّرت في نفوسنا وفـي فهمنـا للسياسة من حيث لا نشـعر، مدرسـة ماديـة، يهوديـة، قديمـة، معروفة، كانت ترى أن الله تعالى لمـا خلـق الكـون والإنسـان، تخلّى عن الحكم والقبض والبسـط والأمـر فـي حيـاة النـاس، وأصبح الإنسان هو الذي يحكـم ويقـبض ويبسـط ويـأمر فـي حياته.

يحدثنا القرآن الكريم في سورة المائدة عن هذه المدرسة اليهوديـة: {**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَـةٌ غُلَّـتْ أَيْـدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**}[1].

وتحولـت هـذه العقيـدة اليهوديـة القديمـة إلـى أسـاس علماني في فهم السياسة، وتحليلها، ومناقشتها، وترقّب النتـائج

---

(١) المائدة: ٦٤.

السياسية والتنبؤ بها. ثم تسلّل هذا المفهوم العلماني اليهودي عن السياسة إلى مجتمعنا الإسلامي، وأصبحنا نتعامل معه كحقيقة ثابتة لا نقاش فيها.

ومن الشواهد على ذلك الأحداث التي سبقت قيام الدولة الإسلامية المباركة في إيران.

فقد كنت أتوخى أن أفهم رأي المثقفين الواعين في خضم الأحداث، فلم أجد إلا قلة قليلة كانت واثقة بالنصر، وأكثر من رأيت من المثقفين كانوا يرون أنّ الورقة الرابحة لأمريكا على كل حال، وأن نتائج هذه الحركة لا تتخطى سقوط وزارة وقيام أخرى، وأن هذه الثورة لا يمكن أن تتجاوز حدود الوفاق الدولي القائم بشأن إيران، وأنّ أمريكا لن تتخلى عن إيران وعن النظام الملكي، وأنّ القضية لا تتجاوز محاولة أمريكية لتأديب الشاه وتحجيم سلطاته، أو أنّ رأس الحبل بيد اليسار، والمؤمنون هم الضحايا، وأن مراجع الدين ينقصهم الوعي السياسي وقضيتهم خاسرة بالتأكيد، وأن ثورة الشارع لا يمكن أن تزعزع أركان النظام

الشاهنشاهي العتيد، وأن هناك لعبة خفية تكشفها الأيام فيما بعد، وأنّ أمريكا لا يمكن أن تسكت عن آبار النفط وقواعدها العسكرية الضخمة في إيران، وأنّ روسيا لا يمكن أن تسكت عن الغاز ومصالحها في إيران وأنّ، وأنّ...

وهذا كله صحيح، على اختلاف مذاهب الناس في السياسة، لو كان الأساس لفهم السياسة: (يد الله مغلولة). أمّا عندما ننطلق من منطلق: (بل يداه مبسوطتان) فإنّ الأمر يختلف تماماً، والمعادلات السياسية وموازين القوى تتطاير، ويتضاءل دورها وقيمتها.

ولست أريد أن أناقش، ولست بصدد أن انتقد، وإنما أريد أن أقول: إنّ هذه الحالة الذهنية هي نتيجة الاحتكاك المستمر بالصحافة والإذاعة العلمانيين، ولابد أن نتلافى ما سبق بتكوين ذهنية إسلامية قرآنية في فهم السياسة.

ولسوف نرى، إن شاء الله، أن القرآن يُشْبع هذه القضية، ويتناولها بكل دقة واستيعاب من أطرافها، ويصنع منها نظرية متكاملة الأطراف.

وحينما يستعرض المؤمن الداعية آيات القرآن الكريم بهذا الصدد، ويضعها في إطارها، ويربط بينها يعجب كيف غفل عن هذه الحقيقة التي يعطيها القرآن الكريم كل هذا التأكيد.

*　　*　　*

لا أريد أن أدخل في تفاصيل الآيات الاعتقادية التي نتلوها في كتاب الله، والتي يربط القرآن الكريم فيها كل شيء في هذا الكون بمشيئة الله تعالى، وأن الأمر له من قبل ومن بعد، ولا يعزب عن علمه شيء، ولا يخرج عن قبضة سلطانه خارج، ووسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم... فإن ذلك حديث يطول أمره وإنما أدخل مباشرة، فيما وعد الله تعالى به المؤمنين من النصر، وأنه تعالى لن يتخل عنهم في صراعهم مع الباطل، وأنّ قوة الباطل وشوكته وسلطانه لن تؤثر في نتيجة المعركة بحال من الأحوال، ولن تحول دون نصر الله تعالى.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}[١].

{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[٢].

{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ}[٣].

{وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[٤].

{بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ}[٥].

{وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[٦].

---

(١) محمد: ٧.

(٢) غافر: ٥١.

(٣) التوبة: ١٤.

(٤) الحج: ٤٠.

(٥) آل عمران: ١٥٠.

(٦) الأنفال: ٤٠.

{وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[(١)].

{فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}[(٢)].

{وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً}[(٣)].

{وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً}[(٤)].

{كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[(٥)].

{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً}[(٦)].

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) المائدة: ٥٦.

(٣) النساء: ٤٥.

(٤) الفرقان: ٣١.

(٥) البقرة: ٢٤٩.

(٦) الانشراح: ٥ ـ ٦.

الْمُحْسِنِينَ}(١).

ويقسم الله تعالى لنبيّه أنه لم يتخلّ عنه:

{وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}(٢).

ويجعل الله تعالى نصر المؤمنين حقاً عليه عزّوجلّ:

{كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي}(٣).

{وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}(٤).

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}(٥).

ولكي تكون القضية حيّة تعيش في حياة الدعاة، يذكر

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) الضحى: ١ـ٣.

(٣) المجادلة: ٢١.

(٤) الروم: ٤٧.

(٥) الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣.

لهم القرآن الكريم نماذج من تاريخ الصراع بين الحق والباطل، حيث تقف الأحزاب أمام حزب الله، ويواجه أنصار الطاغوت أنصار الله تعالى، ويعلن هذا الإنسان الضعيف الحرب على الله تعالى، ويكيد ويمكر بحزب الله.

وينظر الإنسان إلى هذا التقابل في المكر والكيد بين الله تعالى القوي العزيز، وخلقه الطغاة الضعفاء، فلا يملك نفسه من ان يبتسم، ولا يتردد لحظة واحدة في نتيجة هذه المقابلة.

{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}(١).

{ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ}(٢).

{وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}(٣).

ثم يذكر تعالى لعباده أمثلة وشواهد من نصره لأنبيائه

---

(١) الأنفال: ٣٠.

(٢) الأنفال: ١٨.

(٣) يوسف: ٢١.

وعباده الصالحين في حربهم وصراعهم مع الطاغوت:

{وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ}[١].

{فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ}[٢].

{وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ}[٣].

وعن أنصار المسيح عليه السلام يقول تعالى:

{فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}[٤].

ثم يذكّر النبي **2** والمؤمنين بما سبق من تأييد الله تعالى له وللمؤمنين في صراعهم المرير مع المشركين.

{هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ}[٥].

{وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ

---

(١) هود: ٥٨.

(٢) هود: ٦٦.

(٣) هود: ٩٤.

(٤) الصف: ١٤.

(٥) الأنفال: ٦٢.

الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[١].

{إلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا}[٢].

{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ}[٣].

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ}[٤].

هذه هي الحقيقة الربانية الكبرى التي كدنا أن ننساها أو نسيناها بالفعل، لولا رحمة الله، فكاد المؤمنون أن يتصوروا أنهم في ساحة الصراع مع الكفر، وحدهم، وقد كان الله

---

(١) الأنفال: ٢٦.

(٢) التوبة: ٤٠.

(٣) آل عمران: ٢٣.

(٤) التوبة: ٢٥.

معهم في مواقفهم حين البأس، وفي ساعات المحنـة، وداخـل الزنزانـات، وكـان الله معهـم فـي غـرف التعـذيب، وبعـين الله كانوا يتحملون حفلات العذاب والاضطهاد.

وليـت المـؤمنين كـانوا يعلمـون إنّ عـذابهم بعـين الله الرحيمـة، وأن الله لـو شـاء لأوقـف قلـوب معـذبيهم، وشـلّ أيديهم، وأعمى عيونهم عنهم، وإن اليد التي تعصر قلوبهم يد أرحـم الـراحمين، وأنهـم يـألمون ويضـجون بسـمع الله، ويتحملون السياط بعين الله، إلاّ إن ذلـك خيـر لهـم لـو كـانوا يعلمون.

وأن أعـدائهم يتعـذبون، ويعـانون كمـا يعـانون، وتعتصـر الآلام قلـوبهم، كمـا تعتصـر قلـوبهم، ويفقـدون أعـزتهم كمـا يفقدون، وتلك سنة الله في الذين آمنوا والذين كفروا وشـاقوا الله ورسوله على سواء ومن غير فرق، إلا أنّهم يرجون مـن الله ما لا يرجو أعداؤهم، ويجدون من نصر الله تعالى وتأييده، مـا لا يجد أعداؤهم.

{إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ}[1].

وأن طريق ذات الشوكة الذي أراده الله تعالى لهم إلى النصر خير لهم من أن يأتيهم النصر غنيمة باردة رخيصة.

{وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[2].

وإن نصر الله تعالى ليس ببعيد عنهم لو أنهم صبروا.

{أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}[3].

* * *

وتسأل كيف ينصر الله الفئة القليلة الفقيرة الضعيفة على الفئة الكثيرة الغنية القوية، على خلاف ما يتصوره الناس في

(١) النساء: ١٠٤.

(٢) الأنفال: ٧ ـ ٨.

(٣) البقرة: ٢١٤.

موازين القوى، والمعادلات السياسية، والحسابات العسكرية والاقتصادية.

وجواب القرآن الكريم واضح وبسيط، ليس فيه تعقيد الموازنات السياسية المعاصرة، والتي تعلّمناها، وتعوّدناها، رغماً منا، إنّ الجواب بسيط بساطة التوحيد، وأن في التوحيد جواباً واضحاً لكل هذه التساؤلات.

ونرجع إلى القرآن الكريم مرة أخرى، لنلمس الخطوط التفصيلية لهذا القانون:

إن أهم عناصر القوة أربعة: القوة، المال، التسديد، التثبيت.

وإن فئة آتاها الله تعالى هذه العناصر الأربعة، لا يحجبها شيء عن النصر.

ولنستعرض هذه العناصر الأربعة في كتاب الله.

عناصر القوة والنصر

العنصر الأول القوة:

وهـي التـي تمـلأ عيـون النـاس، قبـل كـل شـيء، وتوجّـه أذهـانهم وأفكـارهم وسـلوكهم، فـإذا وثقنـا، وآمنـا بمعيـة الله تعالى للقلة المؤمنة، فلن تعوزها بعد ذلك قوة.

فـإن مـا فـي السـماوات والأرض جنـد الله تعـالى، يـأتمر بأمره، وينتهي بنهيه، ولا يشذ عـن ذلـك خلـق فـي السـماء ولا في الأرض.

{وَلِلَّهِ جُنُـودُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَـانَ اللَّـهُ عَلِيمـاً حَكِيماً}(1).

{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّ هُوَ}(2).

فالبحار جند الله، تضطرب بأمر الله، وتسكن بـأمر الله، فـإذا جاء أمر الله تعالى فلا تـذر أحـداً مـن الظـالمين، واسـتمع إليـه

---

(1) الفتح: ٤ و ٧.

(2) المدثر: ٣١.

تعالى يحكي لنا قصة فرعون وجنده:

{وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ}(١).

{فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ}(٢).

ولله جند من أمطار السماء وينابيع الأرض، فإذا أذن الله لها أمطرت، وتفجّرت، وتموّجت الأرض بها، وأغرقت من كان فيها من الظالمين. فاستمع إليه تعالى في قصة نوح:

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ

(١) القصص: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) طه: ٧٨.

مِن مُّدَّكِرٍ}[١].

ولله جنود من الريح، لا تُبْقي ولا تذر، إذا أذن لها الله تعالى:

{كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}[٢].

وإن من جند الله الصيحة، وما أدراك ما الصيحة، أرسلها الله على ثمود فجعلهم كهشيم المحتظر.

{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}[٣].

وأرسلها الله تعالى على قوم شعيب، بعد أن أنجى شعيباً

(١) القمر: ٩ ـ ١٥.
(٢) القمر: ١٨ ـ ٢١.
(٣) القمر: ٣١.

والذين آمنوا معه.

{وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ}[1].

ولله جنود من الحجارة، تمطرها السماء، إذا أذن الله تعالى لها، هلك بها قوم لوط:

{فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}[2].

ولله تعالى جنود من الطير، يرسلها على الظالمين بالعذاب متى شاء:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ *

---

(١) هود: ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) هود: ٨٢ ـ ٨٣.

تَـرْمِيهِم بِحِجَـارَةٍ مِّـن سِـجِّيلٍ * فَجَعَلَهُـمْ كَعَصْـفٍ مَّأْكُولٍ}[١].

ولله تعـالى جنـود مـن القمـل، والضـفادع، والجـراد، والطوفان، يرسلها متى يشاء على الظالمين.

{فَأَرْسَـلْنَا عَلَـيْهِمُ الطُّوفَـانَ وَالْجَـرَادَ وَالْقُمَّـلَ وَالضَّفَادِعَ}[٢].

ولله جند من الصاعقة يرسلها متى شاء، وقـد أرسـلها علـى ثمود:

{فَعَتَوْا عَـنْ أَمْـرِ رَبِّهِـمْ، فَأَخَـذَتْهُمُ الصَّـاعِقَةُ وَهُـمْ يَنظُرُونَ}[٣].

ولله جنود من الملائكة، لا نراها، تـدخل مـع الفئـة القليلـة فـي المعركـة وتـدافع عنهـا، وتحفظهـا بـأمر الله. كمـا أمـر الله

---

(١) سورة الفيل.

(٢) الأعراف: ١٣٣.

(٣) الذاريات: ٤٤.

الملائكة في معركة بدر أن ينزلوا ساحة القتال إلى جانب المسلمين:

{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}(١).

وما أروع هذا الإمداد الإلهي في المعركة. يرسل الملائكة مع المؤمنين، ثم ينبؤهم انه معهم، فتتلاحم هذه المعية المزدوجة في مشهد إيماني رائع، في ساحة القتال، معية الملائكة للمؤمنين، ومعية الله تعالى للملائكة.

وكيف تتكافأ أطراف هذه المعركة، والله والملائكة، وجند الله من الأرض والسماء مع الفئة القليلة، وليس مع الفئة الكثيرة إلاّ نفر ضعاف، وحفنة من الأموال والأسلحة.

وهذه هي القوة التي يحسب الناس لها كل حساب في المعادلات السياسية.

---

(١) الأنفال: ١٢.

وهل يتصور الإنسان قوة أعظم من هذه القوة، وجنداً أقوى من جند الله، وسلطاناً أقوى من سلطان الله.

ومع ذلك فإننا نسقط في كثير من الأحيان حساب هذه القوة الكبرى في الكون من المعادلات السياسية، عندما نفكر في السياسة، ونحلّل الأحداث، ونتنبأ بالمستقبل، ونحسب لمستقبل الدعوة حسابها.

العنصر الثاني المال:

ومهما تكن الفئة الكثيرة غنية، تملك ناصية الذهب والفضة، فإنّ خزائن السماوات والأرض لله رب العالمين:

{وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ}.

ولقد كان المنافقون يتصورون أنهم لو حاربوا المسلمين في أرزاقهم، وقطعوا عنهم المال تنضب الدعوة في نفوسهم، وتنقطع علاقتهم بها، في إطار تصوراتهم المادية المحدودة الضحلة.

{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ

حَتَّى يَنفَضُّوا}، فيرد الله تعالى عليهم: **{وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ}**[1].

العنصر الثالث: التسديد والتعليم والهداية:

ثم ماذا تحتاج الفئة القليلة بعد القوة والمال؟ إنها تحتاج إلى التسديد والتعليم والهداية، لتعلم ماذا تعمل؟ وكيف تتحرك؟ وكيف تدعو الناس إلى الله تعالى؟ ومتى تختفي؟ ومتى تظهر؟ ومتى تتكلم بهمس؟ ومتى تصرخ بالحق جهاراً؟ ومتى تتجنب الموجة؟ ومتى تتصدى للموجة؟ ومتى تواجه الطغاة بعنف وقوة؟ ومتى تكلمهم برفق ولين؟ ومتى تتحمّل الظلم وتصبر؟ ومتى تتصدى وتقاتل؟ وكيف تتعامل مع الناس؟ وكيف تجتذب الفارين من الله تعالى إلى الله؟ وكيف تداري الناس؟ وكيف تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؟ وكيف تتصرف تجاه الأحداث؟ وكيف تتصرّف في ظلال الطغيان تصمد وتصبر أم تهاجر وتفر

---

(١) المنافقون: ٧.

بـدينها؟ ومتـى تنـزوي داخـل البيـوت؟ ومتـى تخـرج إلـى الشارع؟ ومتى تعلـن الحـرب وتفجـر الشـارع؟ وكيـف تـنظم الناس؟ وكيف تستقطبهم إلى جانبها؟ وكيف تكسـب الـرأي العام لصالحها؟ ومتى تظهر للنـاس مظلومـة مضـطهدة؟ ومتـى تظهر قوية عزيزة؟ وكيف تقاتل؟ وكيف تعد للقتال؟ وكيف تخطّط للمواجهة والحرب؟ وكيف تلقي الرعـب فـي قلـوب الأعداء؟ وكيف تمكر بهم؟ وكيف تستأصلهم؟... إلـى آخـر هذه التساؤلات.

ولا شك أن هذا كله علم قـائم بالـذات، هـو علـم الـدعوة والحركة، ونور يلقيه الله في نفوس الدعاة إليه، يمشون به فـي الناس، ويتعاملون به مع النـاس، ولاشـك أن علـى الـدعاة إلـى الله تعالى أن يكتسبوا هذا العلم، ويتزودوا بتجارب من قـبلهم، ولا شـكّ أنهـم فـي حـركتهم الكبـرى فـي التـاريخ يصـيبون الهدف حيناً، ويخطأون آخر، وأن أعداء الإسلام في المقابـل يفرّغـون لهـذه المهمـة فـي حـركتهم المعاديـة لله ولرسـوله، أجهزة وأشخاصاً ودراسات واسعة، وغرفاً للرصد والتخطيط.

ولابد للقلة المؤمنة أن تتفرغ لهذا الجانب وتعطيه اهتمامها، كما لابد لها أن تولي جانب القوة والمال أيضاً اهتماماً حقيقياً، وتفكر وتخطط وتعمل وتسعى لتحصيل المال والقوة، فإن ذلك جزء لا يتجزأ من المعركة.

ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن الله تعالى لن يترك القلة المؤمنة لجهدها وعملها في هذا الحقل فقط، ولن تتخلّ عنهم المعية الإلهية في التسديد والتعليم، كما لم تتخلّ عنهم في ساحات القتال. والقرآن الكريم صريح في ذلك:

{وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً}(١).

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}(٢).

وكلّ ما يحتاجه الداعية في حركته هو أن يشير عليه احد بالرأي الصحيح ويهديه، ويسدده في الرأي، ثم يضم يده إلى

---

(١) الفرقان: ٣١.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

يده، وقوته إلى قوته، ويعينه على حمل ما لا يطيق من حمله ومسؤولياته، وقد ضمن الله له كلاً من هذين الأمرين: (الدلالة) و(العون)، ضمن له الدلالة: **{لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}** والعون: **{وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}**.

ويرزق الله تعالى الدعاة إليه عزّوجلّ نوراً يمشون به في الناس، يعرفون كيف يتعاملون مع الناس من أعدائهم وأصدقائهم، والمتفرجين على الطرفين، وكيف يتعاملون مع القلوب، والعواطف، والعقول في الوقت الذي يسلب تعالى هذا النور من قلوب الكافرين.

{أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[(١)].

وتعبير القرآن دقيق **(نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)** هو نور للحركة في وسط المجتمع، وليس نوراً للتنظير.

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

العنصر الرابع التثبيت:

من عناصر النصر التثبيت والإيمان بالنصر، وارتفاع الحالة المعنوية في نفوس الدعاة. وهذه الأمور من خصائص الدعاة المؤمنين بالله. والنفوس المؤمنة هي وحدها التي يمنحها الله تعالى الثقة، والطمأنينة، والسكينة، والاستقرار، والثبات ساعات البأساء والضراء.

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً}(١).

{فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}(٢).

{ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}(٣).

وهذه هي السكينة التي تمنح الإنسان استقراراً في النفس،

---

(١) الفتح: ٤.

(٢) الفتح: ١٨.

(٣) التوبة: ٢٦.

وسكوناً لها من القلق والاضطراب، في أحرج ساعات المحنة.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الله تعالى يمنح المؤمنين الدعاة ثباتاً على أرض المعركة، وثباتاً في الموقف، وثباتاً في الإيمان، وثباتاً في القول، وثباتاً في الدنيا، وثباتاً في الآخرة.

{يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ}(١).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}(٢).

وليس هذا فحسب، وإنما يربط القلوب أيضاً. فإن القلوب تضعف في ساعة المحنة، ويتسرب إليها الضعف، إذا قست المحنة وطالت، فيتساقط فيها أكثر الناس قوة واستقامة، إلاّ المؤمنين، فإن الله تعالى يربط على قلوبهم.

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(٢) محمد: ٧.

{وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ}[1].

ويقول تعالى عن فتية أهل الكهف، الذين واجهوا الطاغية (داقيانوس) بصرخة التوحيد المدوية **{إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً}**.

يقول تعالى أنه ربط على قلوبهم في هذه المواجهة الصعبة، وثبتهم: **(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا)**.

فما أروع القلوب المؤمنة في ساعات المحنة، وفي ساحات القتال، وداخل زنزانات السجون، وتحت سياط الجلادين... ثابتة مطمئنة، مرتبطة بالله، ساكنة، مستقرة، كأنها قدت من زبر الحديد، وما قيمة الحديد تجاه صلابتهم واستقرار قلوبهم.

ومن أوضح هذه الحقائق وأبسطها أن أصحاب هذه القلوب لا يتخطاهم النصر، مهما طالت محنتهم وتعاظمت.

---

(١) الأنفال: ١١.

وفــي قبــال هــذه القلــوب قلــوب المنــافقين والكــافرين والطغاة، فإنها في قمة سطوتها، واستكبارها، وتطاولها على الله ورســوله... ضــعيفة، مهــزوزة، مرعوبــة، يســاورها القلــق، ولا يفارقها الخوف والاضطراب.

{سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَـرُواْ الرُّعْــبَ بِمَـا أَشْــرَكُواْ بِاللّهِ}[1].

{وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِــنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُــوبِهِمُ الرُّعْــبَ يُخْرِبُــونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْــدِي الْمُــؤْمِنِينَ فَــاعْتَبِرُوا يَــا أُولِــي الأَبْصَارِ}[2].

ولقد حسب هؤلاء اليهود كل حساب، وحصّنوا حصونهم وفق هذه الحسابات، فأتـاهم الله مـن حيـث لـم يحتسبوا، مـن داخل قلوبهم، فقذف في قلوبهم الرعب، وهزمهم مـن حيـث

---

(١) آل عمران: ١٥١.

(٢) الحشر: ٢.

لم يكونوا يحتسبون.

ويصف القرآن الكريم حال هؤلاء المهزومين من المنافقين وصفاً رائعاً في حالتي الخوف والأمن:

{أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}[(١)].

تلك الحالة النفسية لكل من المعسكرين: معسكر الدعاة إلى الله، ومعسكر أعداء الله ورسوله.

*　　*　　*

وقد يخطر على بال احد أنّ الأمر قد اختلف في عصرنا، عما كان عليه من العصور السابقة، فإنّ الصراع بين موسىعليه السلام وفرعون، وبين نوح وقومه، وإبراهيم وقومه، ورسول الله 2 وقريش واليهود.. كانت بوسائل متكافئة أو متقاربة.

أما اليوم، فقد تسلح الطغاة بآخر ما استحدثه العقل

---

(١) الأحزاب: ١٩.

الإنساني من الأسلحة المدمرة والفتاكة، وانتزعوا كل شيء من أيدي المؤمنين، وفرضوا سلطانهم وقوتهم على كل جوانب الحياة، واستوعبوا كل مداخل حياة الناس، ومساربها، ومخارجها، وسلبوا عنهم كل قوة وصلاحية...، وفرضوا عليهم رقابة أمنية عتيدة، استخدموا فيها كل الإمكانات العلمية والتقنية والمالية والإعلامية...، بعد كل هذا السلطان المالي والعسكري والأمني، لم يبق مجال للتحرك، ولم يبق أمل في النصر.

وكيف ترى تتحوّل، وتنقلب هذه القوة العملاقة إلى أيدي المؤمنين وكيف يتخلص المؤمنون من إخطبوط أجهزة الأمن والاستخبارات التي تضيق عليهم الخناق وتكاد أن تحصي عليهم أنفاسهم؟

إن أقصى قوة فرعون كانت في أن يطلب من السحرة أن يتحدوا بسحرهم موسى عليه السلام، وأن يصنع له هامان برجاً ليصعد عليه ويرى إله موسى عليه السلام، وإن أقصى قوة نمرود كانت في أن يصنع ناراً ليحرق فيها إبراهيم عليه السلام، وإن أقصى

قوة أبي جهل كانت في حفنة من الأوباش يحيطون به، ويأتمرون بأمره.

وأما طغاة عصرنا فهم يحصون على الناس أنفاسهم، ويملكون من الأسلحة الفتاكة ما لا تُبقي ولا تذر، ومن الأنظمة العسكرية والأمنية والحزبية المعقدة، ما لم يكن يخطر على بال الطغاة والدعاة في العصور الأولى.

وجوابي على هذه الشبهة، وهي مع الأسف شبهة عميقة في النفوس،... جوابي عليها شاهد من عصرنا ودليل من كتاب الله.

أما الشاهد من عصرنا فهو تحول القوة من طاغية إيران ونظامه الرهيب، الذي كان يضرب به المثل، إلى أيدي الدعاة، وانهيار الحصون والقلاع الأمنية، والعسكرية، والاقتصادية، والاستعمارية التي كانت تحميه في أقل من سنة.

وأما الدليل من كتاب الله، وهو الأصل والأساس في الوعي والمعرفة:

{وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً }(١).

{وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً }(٢).

{وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً }(٣).

فلن تتبدل سنة الله تعالى في نصر عباده المؤمنين، وهزيمة الطغاة الجبارين، ولن تتغير هذه السنة، ولن تتحول، ولن يؤثر عليها مرور الزمن... إنها سنة الله، ثابتة، مستقرة، وليست صدفة، تحدث مرة أو مرتين، ثم تنقطع.

إنها سُنّة، كما أن اختلاف الفصول في السنة سُنة، وكما أن شروق الشمس وغروبها سُنة، وكما أن نزول الأمطار على الأرض سُنّة، وكما أن اختلاف ألسنة الناس سُنّة.

---

(١) الإسراء: ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) الأحزاب: ٦٢.

(٣) فاطر: ٤٣.

إن سُنن الله لن تتغير، ولن تتبدل، وهي جزء من حقائق هذا الكون الكبير، أودعها الله تعالى فيه إيداعاً ثابتاً.

تلك هي حقيقة النصر الإلهي للقلّة المؤمنة على وجه الأرض، وكما ترون إن المماراة في هذه الحقيقة والتشكيك فيها، مع الالتفات، مماراة في كتاب الله، وتشكيك في التوحيد.

فقد توخّيت في هذا الحديث أن لا أتجاوز كتاب الله الذي أنزله الله تعالى على رسوله نوراً وهدى وبياناً لسنن الله في الكون والمجتمع والتاريخ.

وقد رأينا أن القرآن الكريم يعد القلّة بالنصر، وعداً مؤكداً من الله، والله تعالى لا يخلف وعده، ومن أصدق من الله قيلاً.

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً }[١].

ذلك وعد من الله، ثابت، مذكور في كتاب الله:

{وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً }[٢].

{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ }[٣].

وبذلك فإن الإيمان بالنصر من التصديق بوعد الله، والتصديق بوعد الله من الإيمان بالله.

وهكذا نرى: أن الإيمان بالنصر وتدخل المشيئة الإلهية لتحويل مجرى الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية لصالح الفئة القليلة من المؤمنين... جزء جوهري من عقيدتنا، وأساس من أسس إيماننا بالله تعالى... وهو جزء من تحليلنا السياسي وفهمنا للقضايا السياسية.

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) النساء: ١٢٢.

(٣) الروم: ٦٠.

إن فصل العقيدة والإيمان بالله عن السياسة، جاء في فترة غفلة من هذه الأمة، والجراح الذي تركه فصل الدين عن السياسة في جسم الأُمة لم يكن بعمق وخطر الجراح الذي تركه فصل العقيدة عن السياسة في حياة أمتنا.

ذلك أن الفصل الثاني يمتد بطبيعته إلى عمق النظرية والمفهوم والذهنية الإسلامية، بينما يقتصر عمق المأساة الأولى، على طريقة تعامل المسلمين مع الأحداث السياسية، من خلال نظرة خارجية (برّانية)، وليس من خلال التكليف الشرعي.

ما هي شروط النصر؟

إن نصر المؤمنين سُنّة إلهية ثابتة، قطعية، لا شكّ في ذلك، ولكنه سُنّة إلهية مشروطة، وليست مطلقة.

وسنن الله تعالى على شكلين: مطلقة، كالابتلاء، فإنها تنزل على كل احد ولا يخلو منه إنسان ولا مجتمع. وسُنّة مشروطة، مثل: التغيير، فإنه سُنّة مشروطة بتغيير الناس لأنفسهم {**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا**

بِأَنْفُسِهِمْ}، وسُنّة النصر من السنن المشروطة.

نحن نلتقي في القرآن أولاً بقوله تعالى:

{وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ}[1].

فنجد أنه مشيئة إلهية قطعية، منّ الله تعالى بها على المستضعفين من الرجال والنساء والأولاد، تتحول القوة والسلطان بها إلى المستضعفين من أيدي الجبابرة والطغاة، ويمكّن الله لهم في الأرض، ثم يشمت بالطغاة والجبابرة الذين كانوا يتحكمون من قبل في دماء المسلمين وأعراضهم ويستكبرون في الأرض.

إنه الانقلاب الحقيقي في ميزان القوى، وفي أمر الإمامة والقيادة في الأرض إنه إرادة الله: (ونريد).

---

(١) القصص: ٥ ـ ٦.

ولكن إرادة الله تعالى لها شروطها. ومن لطائف التعبير والسياق في القرآن الكريم فصل القضايا عن شروطها أحياناً ليبعث في نفوس الناس الأمل... وأما الشروط، فإن القرآن يفصّله تفصيلاً، وإليك طرفاً من هذه الشروط:

الشرط الأول الإيمان:

وهو أمر جوهري في النصر. يقول تعالى: **{وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}**[1].

ولا شك أن الإيمان هو الشرط الأول، وهو الأساس والقاعدة لشخصية المسلم، وهو المنطلق لأفكاره ومفاهيمه وقيمه وسلوكه.

والنصر لا يشذّ عن هذه القاعدة. فإن الإيمان بالله تعالى يمنح الإنسان المؤمن الثقة، والقوة، والتوازن، والطمأنينة، والسكينة، وهي أهم القضايا في تحقيق النصر، ولا يتحقق شيء من ذلك من دون الإيمان بالله.

---

(١) آل عمران: ١٣٩.

يقول تعالى، فيما يُثبّتُ به فؤاد الفئة القليلة المؤمنة، بعد نكسة أحد:

{وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}(١).

والاستعلاء الحقيقي يتحقق عندما تكون الأمة مؤمنة، وما عدا ذلك بطر، ورئاء، وغرور، وباطل.

ويخاطب عزّوجلّ المشركين من قريش، بقوله:

{وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}(٢).

الشرط الثاني: التقوى:

وهو إلتزام حدود الله تعالى. وقد يستغرب البعض أن يكون التقوى والتزام حدود الله تعالى في الحلال والحرام شرط من أهم شروط النصر. ويتساءل وما صلة الذنوب

---

(١) آل عمران: ١٣٩.

(٢) الأنفال: ١٩.

والمعاصي بالنصر؟

إن الذهنيـة الغربيـة تقـف مسـتفهمة عـن علاقـة التقـوى بالنصر، ولا تفهم أن تكون هناك صلة بين هـذا وذاك، ولكـن الذهنية الإسلامية التي بلورهـا القـرآن الكـريم لا يفصـل بـين أطراف هذه العلاقة، ولا يستطيع أن يفصل بين علاقة الإنسـان بربـه وعلاقتـه بالنـاس وعلاقتـه بالأشـخاص وعلاقتـه بسـاحة القتال... إنها في النظرية الإسـلامية كـل مـرتبط، فـإذا تفكـك بعضه تهدم سائره، والقرآن الكريم صريح وواضح في ذلك:

{وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[1].

إنّ معية الله للمؤمنين مشروطة بالتقوى:

{إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[2].

---

(١) البقرة: ١٩٤.

(٢) الأعراف: ١٢٨.

{وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[(١)].

{فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}[(٢)].

و{اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[(٣)].

إنّ الشرط الذي يجب أن يتصف به الداعية إلى الله تعالى بعد الإيمان: التقوى، وأي تهاون في ذلك أو تسامح في حدود الله وحلاله وحرامه يسلب عنه صفة الداعية المؤمن، ويخرجه من حظيرة الدعاة إلى الله تعالى، ومن دائرة تأييد الله تعالى وتوفيقه.

إن التقوى إخواني (دار حصن عزيز، والفسوق دار حصن ذليل)، فالتقوى تحمي صاحبه في حصن منيع من الشيطان ووساوسه، ومن أهواء نفسه وشهواته، وهي الخطوة الأولى من النصر، فإن ميدان الداعية الأول نفسه، فإذا أنجز مهمته في

---

(١) التوبة: ٣٦.

(٢) هود: ٤٩.

(٣) الجاثية: ١٩.

هـذا الميـدان، واطمـأن مـن نفسـه، وجاهـد نفسـه تقـع عليـه مسؤولية الدائرة الصـغرى مـن الجهـاد. . وهـو جهـاد الميـدان والسلاح.

ومن عجب أن تكـون سـاحة الحيـاة والصـراع القـائم بـين الكفر والإيمان هي الدائرة الصـغيرة لجهـاد المـؤمن، وسـاحة النفس، والصراع القائم فيها بين التقوى والفجور، هي الـدائرة الكبرى لجهاد المؤمن.

الشرط الثالث: الإخلاص:

الإخلاص روح العمل فـي ديـن الله، ولا قيمـة للعمـل مـن غيـــر الإخـــلاص لله، وإنمـــا يعمـــل المؤمنـــون ويقـــاتلون، ويجاهدون لله، وإذا فقدوا في عملهم هذا الشـرط فقـدوا كـلّ قيمة عملهـم، وإذا أدخـل الشـيطان فـي نفوسـهم حـب الـدنيا والنزوع إلى شأن من شؤون الـدنيا، وأفقـدهم الإخـلاص فـي عملهم، فقد تمكن الشيطان من مصادرة عملهم كله.

والله تعـالى حيـث يعـد عبـاده الصـالحين بالمعيـة الإلهيـة والهداية يشترط ان يكون الجهاد من أجله تعـالى وفـي سـبيل

مرضاته عزّوجلّ.

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}(١).

ويحذرنا تعالى أن نكون نحن كالذين يخرجون من ديارهم بطراً، ورئاء الناس، ابتغاء متاع من متاع الحياة الدنيا من سلطان، ومال، وشأن غيره.

{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}(٢).

الشرط الرابع والخامس: الصبر والصلاة:

{اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(٣).

وهما من أهم شرائط العمل. فإن العمل في سبيل الله تعامل مزدوج في آن واحد مع الله ومع الناس.

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) الأنفال: ٤٧.

(٣) البقرة: ١٥٣.

وتعامل المؤمنين مع الله صلاة، ومع الناس صبر.

ولابد لهم من أن يذكروا الله تعالى ويكونوا على ذكر دائم، وصلة دائمة بربهم عزّ وجلّ، وأن يفزعوا إلى الله بالدعاء فيما تعتري طريقهم من عقبات، ومشاكل، وعوائق، تعيق تقدم الدعوة إلى الله، وفيما يوسوس الشيطان في نفوسهم. وهذا اللجوء إلى الله (: الصلاة) يمنح المؤمنين قوة، وثقة كبيرتين لا حدّ لهما، ويمدّهم بإمداد متصل من ربهم عزّ وجلّ، في طريقه الشائك.

واستمع معي إلى طرف من أدعية الدعاة إلى الله من الأنبياء وعباد الله الصالحين، فيما كان يُلمّ بهم من متاعب وصعوبات في طريق ذات الشوكة:

{رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}[1].

وبإزاء تهديد فرعون يتضرع السحرة إلى ربهم بعد ان

(١) الأعراف: ٨٩.

آمنوا:

{رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}(١).

ويفزع قوم موسى إلى ربهم في محنتهم بفرعون:

{رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}(٢).

{رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(٣).

وهذا هو الطرف الأول: (الصلاة).

والطرف الآخر التعامل مع الناس: (الصبر). إن الصبر تعامل مع الناس، ومع حقائق هذا الكون، وسنن الله تعالى في هذه الأرض.

فإن لله سنن في أرضه، وفي حياة الناس، وفي مسير

---

(١) الأعراف: ١٢٦.

(٢) يونس: ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) التحريم: ٨.

التاريخ، وما لم يعرف الداعية هذه السنن، ولا يعرف مداخلها ومخارجها، وكيف يتعامل معها، فإنه يفشل في أداء مهمته.

إن الفرد، والمجتمع، والعقول، والعواطف، والاقتصاد، والسياسة، والحكم، والرأي العام، والحركة، والثورة، والمال، والإدارة، والتاريخ... وكل ما يتصل بعالم الإنسان يخضع لسنن إلهية ثابتة، كما تخضع الأشياء للسنن والقوانين الإلهية، وكما تخضع الجاذبية، والكهرباء، والبخار، وطبقات الأرض، وتكّون الجبال، والبحار، والجزر، والمد، ونبات الأرض، لنواميس وقوانين إلهية ثابتة، كذلك عالم الإنسان بكل تعقيداته.

وما لم يعرف الداعية سنن الله تعالى في حياة الإنسان، والتاريخ، والفرد، والمجتمع لا يستطيع أن يؤدي مهمته الأداء الحسن المناسب، فإذا عرف هذه السنن، وأحسن معرفتها بما آتاه الله من نور، وبما يكتسب من تجربة وخبرة في حياته العملية وخبرات وتجارب العاملين والمجاهدين من قبله... صبر على هذه السنن، واعترف بها، وأعطى للزمان حقه

ولمراحل العمل حقها الثابت.

فإن الفشل اقرب شيء إلى الإنسان، لو لم يحاول أن يعرف سنن الله في الحياة، أو حاول أن يعاكس التيار، ويخترق السنن، ويتجاوز مراحل العمل، ويتناسى دور الزمن، ويتجاهل أنه يتعامل مع إنسان آخر له إرادته، ورغبته، وشخصيته،... تماماً كما يفشل الفلاح، لو أنه لم يعرف متى يزرع، وأين يزرع، ومتى يحصد. فإذا تغافل عن سنن الله في وقت الزرع أو وقت الحصاد أو مكان الزرع، فإنه لا يجني من عمله غير الخسران.

وفي رأيي أن الدعاة إلى الله تعالى لابد أن يلمّوا إلمامة كافية كاملة بتاريخ الأنبياء : والدعاة إلى الله تعالى، وممارساتهم، في حياتهم، ومع الناس، منذ نبي الله نوح عليه السلام إلى عصرنا، وبصورة خاصة لابد أن يلمّوا إلمامة كافية بسيرة رسول الله **2** ، ليعرفوا سنن العمل قبل كل شيء، ولابد أن يعيشوا مع الناس، ويتعاملوا مع الناس، ويقرأوا ويسمعوا، ويعملوا في صفوف الناس، ليعرفوا عن كثب سنن الله تعالى

في حياة الإنسان...

ثم لابد أن يتزودوا بعد ذلك، بالصبر في التعامل مع الناس، والصبر في مواجهة الظالمين، والصبر في توعية المسلمين، والصبر في تحريكهم، وإعداد العدّة المادية والمعنوية لكل ذلك، وتحمّل متاعب الطريق، وإعطاء الزمن دوره، والاعتراف بالزمن كعامل أساسي ـ في سنن الحياة ـ لنجاح العمل وتقدمه، والصبر على أخلاق الناس وكلامهم، والصبر على طول الطريق وبُعد الشُقّة، والصبر على الأسلوب، والصبر على المرحلة، والصبر على تحديات الظالمين، والثبات، والإعداد، والاستقامة، والاستمرار، والنفس الطويل الواثق في العمل.

وطبيعي أن هذه المراحل الشاقة من العمل والصبر، لا يمكن أن يجتازها الداعية وحده. فالطريق أبعد من أن يقطعها الداعية إلى الله وحده، والحمل أثقل من أن يحمله الداعية وحده، فلابد من أن يكون مع الله، ليكون الله معه، وليخفف عنه ثقل العمل ويقرّب له الطريق الطويل...

ولابد له إذن من الصلاة، ولابد من أن يفزع إلى الله، ليكون معه في الطريق الشائك، ولابد أن يقترن الصبر بالصلاة، ليصل الغاية في مسيره، بمعية الله تعالى.

{اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(١).

فإذا استعان الدعاة بالله تعالى، وصبروا، فإن النصر لن يتخطاهم، ورحمة الله تعالى لن تعدوهم.

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا}(٢).

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}(٣).

واقرأ معي كيف يعلّم الله تعالى نبيه 2 أجمل تعليم، ويعلمه ألا يستعجل في طريق الدعوة، ويتعلم الصبر ممن

---

(١) البقرة: ١٥٣.

(٢) فصلت: ٣٠.

(٣) الأحقاف: ١٣.

سبقه من أولي العزم من الأنبياء.

{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُـلِ وَلا تَسْـتَعْجِل لَّهُمْ}[١].

ومن قوم موسى المستضعفين جعل الله تعالى أئمة وقادة أورثهم سلطان فرعون بما صبروا:

{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا}[٢].

ويأمر الله تعالى رسوله 2 أن يتبع ما يوحى إليه، ويصبر مع قومه، وينتظر حكم الله:

{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ}[٣].

وأحوج ما يكون الداعية إلى الصبر عندما تطول المحنة وتقسو، فيستخفه الذين لا يوقنون بالله:

{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْـدَ اللَّـهِ حَـقٌّ وَلا يَسْـتَخِفَّنَّكَ الَّـذِينَ لا

---

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) السجدة: ٢٤.

(٣) يونس: ١٠٩.

يُوقِنُونَ}[1].

*   *   *

وحبّذا لو توقفنا لحظات عند هذه النقطة من البحث، فهي من أهم النقاط التي يعاني منها المؤمنون العاملون، على اختلاف شعوبهم، وأوساطهم، في هذه الفترة القاسية، من تاريخهم، التي يحتاج فيها المؤمنون إلى وعي ومعرفة لطبيعة المرحلة القاسية التي يمرون فيها. ونشير بهذا الصدد إلى نقطتين مهمتين:

١ ـ إن فترة الابتلاء قد تطول على المؤمنين، وقد تكون قصيرة، وطول الفترة وقصرها يخضع لمستوى الإيمان والعمل الذي تقدمه الأمة المؤمنة، ولقوانين وسنن إلهية أخرى لا نعرفها، وقد تقسو المحنة والفتنة بالمؤمنين، وعادة تعتبر هذه القسوة مخاضاً للنصر، تنتبه خلالها القطاعات الواسعة من الأُمّة، وتستقطب فيها القيادة الإسلامية والطلائع

---

(١) الروم: ٦٠.

المؤمنة المجاهدة تعاطف الأُمّة وثقتها خلال هذه المحنة. والأمة تمنح عطفها وثقتها للقيادة وللعاملين في حالة المحنة، أكثر مما تعطيها في حالة اليسر والرخاء.

ومخاض النصر (المحنة) قد يكون قاسياً على المؤمنين، ليس عليهم فحسب، وإنما على ذويهم وأسرهم أيضاً.

وقبل أن نسترسل في إكمال الموضوع أود أن ألفت نظر المؤمنين في هذه المحاضرة إلى ضرورة وأهمية الإعداد الداخلي لأسرهم وعوائلهم، فإن المحنة لا تصيبهم وحدهم، وإنما تصيب عوائلهم وأسرهم أيضاً، فإن كانوا لم يُعدّوا من قبل أفراد أسرتهم لمثل هذه الفترات القاسية فإن خطر التساقط والانهيار في داخل أفراد العائلة المؤمنة ليس ببعيد، ولسنا نريد أن نغفل عنصر الإمداد الإلهي الغيبي للعوائل والأسر الممتحنة، في معنوياتها، وحياتها المادية، ولكن ذلك لا يعني أن المؤمنين العاملين لا يُعدّون أفراد أسرتهم لمثل هذه الحالات القاسية التي تمر عليهم من قبل، ليحميهم من التساقط والانهيار، فإن الفتنة سيف ذو حدّين، وسلم يصعد

منه ناس إلى الله، ويهبط منه آخرون إلى الشيطان.

فلكي تكون هذه المحنة في حياة العاملين وأسرهم سُلّماً صاعداً لابد أن يتفرغوا لإعداد عوائلهم وأسرهم، إعداداً داخلياً، قوياً، من قبل.

ونقطع الحديث عن هذه النقطة ونعود مرة أخرى إلى صلب الموضوع فأقول: إن فترة المحنة قد تطول وتقسو، ولكن لا ينبغي أن تطاول المحنة إيمان العاملين في سبيل الله بالنصر والتأييد الإلهي في حال من الأحوال، فإن النصر الإلهي حقيقة إيمانية في نفس الداعية، وحقيقة كونية في مشيئة الله تعالى، لن تتبدل، ولن تتغير.

وقد يعيش العاملون في سبيل الله في ذروة محنة من هذه المحن القاسية التي مرت على الأنبياء، والمرسلين، وعباد الله الصالحين، وجرت بعد ذلك سُنة ثابتة لله، فيكاد الشيطان أن يمس إيمانهم بالنصر، ويزلزل من ثباتهم وثقتهم بالله، وهم لا يعلمون أن النصر قريب وشيك منهم، وقد يكون في اللحظات الأخيرة من مخاضه العظيم.

{مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}(١).

ويحدّثنا القرآن الكريم عن السُنة الإلهية في حياة العاملين، في توقيت النصر، وضخامة الفتنة واشتداد المحنة، قبل النصر، وفي حال مخاضه، فيقول:

{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا}(٢).

قد يكون النصر قريباً من المؤمنين، ولكن الله تعالى أخفى علمه عنهم لحكمة له تعالى في ذلك، وقد يكون النصر حاصل بين عشية وضحاها، ولكن الله تعالى حجب علمه عن المؤمنين ليمتحنهم في محنتهم.

فلا ينبغي أن تنال المحنة من إيمان العاملين وثقتهم

---

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) يوسف: ١١٠.

بالنصر، ولا ينبغي أن يتسرب اليأس إلى روحهم في حال من الأحوال.

{وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّـهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}(1).

٢ ـ إن حالة المخاض، وهي المحنة، في حسابات البشرية طريق إلى النصر، وفي حساب الله تعالى غاية قائمة بذاتها، في تكامل المؤمنين العاملين.

إن هذه المحن قد تطول، وتقسو، ليعلم الله تعالى ـ وهو العالم ـ الذين جاهدوا من المؤمنين، والذين صبروا تحت وطأة المحنة.

{مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}(2).

فإن الإسلام في حياة الناس فصل وفرقان بين الحق

---

(١) يوسف: ٨٧.

(٢) آل عمران: ١٧٩.

والباطل، وفصل وتمييز بين الخبيث والطيب، ولا يفرّق بين الطيب والخبيث، ولا يميزهما عن بعض أمر أفضل من هذه المحن التي تتعرض لها الأمة، فيصعد قوم، ويهبط قوم آخرون، ومن الصراع بين الحق والباطل، وبين جبهة التوحيد والشرك، فيطيب قوم، ويخبث آخرون.

إذن هذه المحن هي السُلّم الإلهي لتكامل المؤمنين العاملين في سبيل الله، وطريق الكمال طريق شائك وعسير، ولا يتكامل المؤمن في الرخاء واليسر، وإنما يتكامل في العسر والفتنة والمحنة.

أنه يتكامل تحت السياط والتعذيب وفي ظروف الهجرة القاسية، أكثر مما يتكامل في أي وقت آخر.

ويئن العاملون تحت وطأة المحنة، ويستغيثون، وكل ذلك بعين الله تعالى وسمعه.

ولقد قلت من قبل: لو أن المؤمن كان يعلم أن اليد التي تعصر قلبه يد أرحم الراحمين لخفّت عليه المحنة، وهان عليه أن ينشر بالمناشير، إذا كان ذلك بعين الله، وبإرداته، ورضاه،

وفي سبيل مرضاته، وطريقه الذي يسلكه إلى الله تعالى.

فهذه المحن هي الطريق إلى الجنة، وهي المد ارج التي يصعدها الداعية لتزكية نفسه وتطهيرها، وتكميل نفسه، والقرآن الكريم صريح وواضح في هذه الحقيقة، أيما صراحة ووضوح.

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}(١).

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}(٢).

إنها لسذاجة في نفوس الناس أن يتصوروا أن الجنة، بمنازلها الرفيعة ميسّرة لكل احد صام وصلّى، دون أن يمتحنه الله في إيمانه، ودون أن يعلم الله المجاهدين منهم والصابرين.

---

(١) آل عمران: ١٤٢.

(٢) التوبة: ١٦.

وأنها سُنّة لله تعالى قديمة، فلن تشذّ هذه الأمة عن الأمم السابقة، ولن يشذ الدعاة في عصرنا، فيما يتعرضون له من محن وفتن عن الأنبياء، والأولياء، وعباد الله الصالحين، والمجاهدين من قبل، فيما مسّهم من البأساء والضرّاء.

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم، مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء}(١).

ولو أن العاملين كانوا يعلمون بموقعهم من الله، وما يحيطهم من رحمة الله، وهم في ظروف المحنة القاسية، ولو كانوا يعلمون وهم ثابتون، لا يتزلزل لهم قلب، تحت وطأة المحنة، إن ملائكة الله تتباهى بهم، وتهنئوهم، لخفّت المحنة عليهم، وآثروا أن تُقطّع أعضاؤهم في سبيل الله، وتدوم بهم هذه المحنة حتى يأذن الله.

ولو أنهم كانوا يعلمون أن هذه المحن القاسية التي يمرون بها هي النصر الحقيقي لهم، وهي تعدهم للغاية التي من

---

(١) البقرة: ٢١٤.

أجلها خلقوا، وتسلك بهم سبيلاً صُعُداً إلى الجنة لم تثقل المحنة عليهم.

إن الغاية والنصر الحقيقي في حساب الله هي هذه المحن، إذا خرج منها المؤمنون العاملون منتصرون، لم يتزلزلوا، ولم يضطرب لهم قلب، وأما النصر في الساحة فهو فرحة فقط. وشتان ما بين حساباتنا وحسابات الله تعالى.

واستمعوا معي إلى هذه الآية المباركة من كتاب الله:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}(١).

---

(١) الصف: ١٠ ـ ١٣.

ونقف وقفة قصيرة عند هـذه الآيـة المباركـة... إن الفـوز العظيم هـو المغفـرة والجنـة التـي تجـري مـن تحتهـا الأنهـار، والمساكن الطيبة، في جنات عدن، والطريـق إلـى هـذا الفـوز الإيمـان والجهـاد بكـل متاعبـه ومشـاقّه، وببـذل الأنفـس والأموال. ذلك الخير، ذلك الفوز، ذلك النصر.

وأما الفتح فهو الذي نحبه نحن، ونفـرح بـه، وهـو حاصـل بالتأكيد، وهو قريب، ويبشرنا بها الله تعالى:

{نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}(١).

ولا ينبغي أن نشك فيه، ولا يخلف الله وعده، ولكن الفـوز العظيم غيره. إنه حالة مخاض النصر، إنه الغاية مـن المخـاض، والنتيجة من النصر.

ولسـت أريـد أن أقـول: إن مـا يكسـبه العـاملون فـي فتـرة المخاض لا تقل عما يكتسبه العاملون في حالة النصـر، بـل إن الفـوز العظـيم فـي المخـاض، ومـا النصـر إلا فرحـة، يُحبّهـا

---

(١) الصف: ١٣.

المؤمنون، ويبشرنا بها الله تعالى.

وقد قلت من قبل: إن المحنة سلّم صاعد ونازل، وكما يصعد منه ناس بتوفيق الله، يهبط منه ناس بإغواء الشيطان، ولا يفارق تأييد الله تعالى القلة المؤمنة في محنتهم، ولكنها على كل حال قاسية وصعبة، وبحاجة إلى كثير من الصبر، والتوأدة، والثبات، وذكر الله كثيراً، فإن ذكر الله يبعث الطمأنينة والسكينة في القلوب.

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}(١).

كما أن معايشة الأنبياء والمرسلين والدعاة إلى الله تعالى من السلف الصالح في حياتهم ومحنتهم، تبعث الطمأنينة والثبات في القلوب. ولقد كان الله تعالى يثبّت فؤاد نبيه 2 بما يحكى له من قصصهم ومحنتهم وثباتهم على القول الحق:

---

(١) الرعد: ٢٨.

{وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِـنْ أَنبَـاء الرُّسُـلِ مَـا نُثَبِّـتُ بِـهِ فُؤَادَكَ}[١].

* * *

وبعد، فقد جاء النصر، والحمد لله، فـي رقعـة مباركـة مـن رقاع العالم الإسلامي العريض، وحقّق الله وعده، ولـه الحمـد، مـلء السـماوات والأرضـين، وعـدد أنفـاس الخلائـق، ولـه الشكر، فوق شكر الشاكرين، وكما يحب تعالى ويرضى.

جاء النصر في هذه الرقعة الإسلامية بعد مخاض، قـاس، شديد، ومحنة قاسية، ثبت فيها أناس، ولله الحمد، وتساقط فيها آخرون، ونستغفر الله، وثبت فيها المؤمنون حيناً، ولله الحمد، وزلزلوا فيها حيناً، ونستغفر الله. ولسوف يتوالى النصر، إن شاء الله، متلاحقاً، مباركاً، متوالياً...

فقد انتهت فترة الظلمة، أو كادت أن تنتهي، وانقطع نَفَس الاستعمار والشيطان والطغاة، وثبت أنّ نَفَس المؤمنين في

---

(١) هود: ١٢٠.

المعركة أقوى وأطول من نفس الكافرين. ذلك أن: {**اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**}(١).

وفي نهاية هذه المرحلة القاسية من المحنة نعود إلى الله تعالى لنشكره، ونعتذر منه ونستغفره، شكراً على ما أنعم علينا من الرحمة، واعتذاراً واستغفاراً مما سبق منا في مرحلة الفتنة من الضعف، واليأس والتقاعس، والزلل، وهو الحميد الغفور.

أجل فترة المحنة، هي أصعب فترات التعامل مع الله، وأشدّها وقعاً على المؤمنين، وأكثرها أخذاً وعطاءً في التعامل معه عزّوجلّ.

وقد سبق من المؤمنين العاملين في هذه الفترة كثير من الزلل، والضعف، والخوف، وكادوا أن يجنحوا إلى اليأس،

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

وكادت قلوبهم أن تميل إلى الراحة والعافية، تحت ضراوة المحنة، وزلزلوا، أحياناً، وتعثّروا أحياناً أخرى، وكادوا أن يستسلموا لتشكيك المشككين، وتثبيط المثبطين، عندما طالت بهم الفتنة، وبعدت عليهم الشُقّة... ولكن الله تعالى ثبّتهم، وطمأنهم، وأمدهم بالقوة والإيمان، وأراهم آياته البينات، في يقظتهم، وأحلامهم، وحفظهم عنه في الزلل، وأقالهم من عثراتهم، وأعاد إليهم النافر من قلوبهم، وزجر عنهم الشيطان، وأبقاهم تحت المحنة ما تحمّلوا، فإذا نفذ صبرهم أعمى عنهم عيون أعدائهم، وأصمّ آذانهم وكمّم أفواههم.

ولقد كانوا، برحمة الله، يرون الله تعالى شاهداً، وسامعاً، وهم تحت السياط، فيخفّ عليهم وقع التعذيب، ويمرّون أحياناً على مرأى ومسمع من أعدائهم فلا يرونهم برحمة الله.

ولقد كانوا يخطأون الخطئة، ويعثرون العثرة، فيسدّدهم الله. ولقد كانوا يتركون عوائلهم فارين، مهاجرين، أو مقبوضاً عليهم، بلا مؤن، ولا حيلة، ولا رزق، فيرزقهم الله.

ولقد كانوا يخافون في غياهب السجون، وفي مآسي

الهجـرة أن تنحـرف عـوائلهم. أو كـانوا يجزعـون لفـراقهم، فتعود إليهم عوائلهم، أو يعـودون إلـيهم، فيـرون أن الله تعـالى قد أسبغ عليهم رحمته وحمايته وتسديده.

ولقد كانوا يهاجرون إلى بلاد نائية، يفقـدون فيهـا الأمـن، والمال، والأهـل، فيـرزقهم الله فيهـا الأمـن، والمـال، والأهـل، والأصدقاء.

ولقد كانوا يخشون على إيمانهم أن تتزلزل، ومن أنفسـهم أن تتساقط تحت وطأة التعـذيب، فيمـدّهم الله بالإيمـان علـى إيمانهم، وبالنور على نورهم، وبالقوة على قوتهم التـي آتـاهم من قبل.

ولقد كانوا يخشون ألا تتحمـل أجسـادهم قسـوة العـذاب، فيرزقهم الله القوة، والصبر، والجلد في إيمانهم.

ولقد كانوا يخافون أن يتعرض الطاغية لأعراضهم، فـتظلمّ الدنيا فـي أعيـنهم، فيعمـي الله عيـون أعـدائهم عـن عـوائلهم، وأعراضهم، ولا يمسونهم بسوء أو شرّ.

ولقد كانوا يخافون أن يتركوا من ورائهـم آبـاء عـاجزين، وأمهات عجزة، وأبناءً صغاراً، ونساءً لا حيلة لهـم فـي العـيش

من بعدهم، فيعطف الله عليهم قلوب قوم مؤمنين، فيواسونهم في أرزاقهم، ويقاسمونهم لقمة عيشهم.

الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، عدد أنفاس الخلائق، الحمد لله فوق حمد الحامدين، والحمد لله عدد قطر الماء، والحمد لله كلما حمد الله حامد، وكلما سبّح الله مُسبح، والحمد لله عدد الرمل والحصى، والحمد لله عدد أمواج البحار، والحمد لله كلما هبّت ريح، والحمد لله كلما شرق شارق وكلما غرب غارب، والحمد لله كما يحب ويرضى.

ونستغفر الله مما سبق منا من زلل، وخوف، وميل إلى اليأس والدنيا، ونستغفر الله مما سبق منا من الخوف، ونستغفر الله كلّما هجس في نفوسنا هاجس إن الله تعالى قد تخلّى عنا، ونستغفر الله من حب الراحة والعافية.

نستغفر الله من سقطات أعمالنا، ومن كبائر ذنوبنا وصغائرها.

{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ

تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}(١).

أجل شكر، واعتذار، وحمد، واستغفار في نهاية هذه المرحلة من التعامل مع الله تعالى.

ولنقرأ معاً هذه الآيات البيّنات من كتاب الله تعالى، ونختم به هذا الحديث فمسك الختام كلام الله:

{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}(٢).

{هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}(٣).

والحمد لله رب العالمين

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) سورة النصر.

(٣) الأحزاب: ٢٢.

الفهرس